مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد الخامس – المجلد الأول
ديسمبر 2017
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing

شعريّة الفطرةِ (قصيدة تأبط شراً " يا عيدُ مالك " نموذجاً)

حمدة مشارك عيد مخلف الرويلي
قسم اللغةِ العربيَّةِ / أدب قديم || جامعة الحدود الشمالية || عرعر || المملكة العربية السعودية

ملخص: الأدب هو الأداة التي من خلالها نستخرج ما في الطبيعة من الكمال، خاصة أن الإنسان مهيأ لقبول هذا الكمال، ومستعد له بالفطرة، ومن هنا جاء هذا البحث، وفيه حاول الباحث أن يميط اللثام عن مفهوم الفطرة، من خلال تعريفها لغويا أولا، ثم استجلاء مفهومها في الأدب، ورأي الأدباء في ذلك.

وقد اتجه الباحث إلى أن المقصود بها " الطبع " الذي يعبر عن حالة قائله فيؤثر في نفوس الآخرين خاصة إذا كان هذا الشعر يجسد مجموعة من القيم، والفضائل التي يتحلى بها العرب، والتي هي أقرب للذات النموذجية للإنسان المسلم كما صوره المسلمون.

فهذه الفطرية هي رؤية عامة تهيمن على شعر الصعاليك بدايةً من المعجم، وانتهاء بالدلالة والرؤية .وهذا النص " يا عيدُ مالك " يؤكد أن المعنى العام للنص المتمثل في الطبيعة الخشنة التي فطر عليها الشاعر ، لا يمكن أن يحرر إلا من خلال الرؤية الكلية الجوهرية الجمعية للنص، فالمعنى لا يتشكل إلا من خلال هذه النظرة الكلية ، وهذا ما يسمى بالتفاعل النصي الذي يكون تأثير آخر كلمة فيه لا يقل عن تأثير أول كلمة في النص.

وتبيّن في النهاية أن الدلالة العامة في قصيدة تأبط شرا هي :التغني بعزة النفس ومحامدها، والثورة على أعراف القبيلة الظالمة التي تلحق بهم الذل والهوان، ويكون ذلك بإرساء قواعد جديدة لمجتمع يسوده العدل، والمساواة تبعا للقيم العربية الأصيلة، والمحور الجامع لهذه المعاني يتمثل في الخشونة.

الكلمات المفتاحية: الفطرية – القيم الأخلاقية– التجربة الشعرية – الواقع الاجتماعي – الخشونة – الثورة.

المقدمـــــة:

إن الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد :

الأدب هو الأداة التي من خلالها نستخرج ما في الطبيعة من الكمال، خاصة أن الإنسان مهيأ لقبول هذا الكمال، ومستعد له بالفطرة، ولأهمية ذلك عزمت على الكتابة في هذا الموضوع " شعرية الفطرة " بعون الله تعالى.

وكان من أهداف البحث، بيان مفهوم ومعنى الفطرة وعلاقة ذلك بالطبع، والتأكد من مدى هيمنة الفطرية على نص كامل، من خلال تحليل نص للشاعر الصعلوك تأبط شرا " يا عيد مالك" ، وبيان نتائج ذلك.

واعتمد الباحث المنهج التحليلي الوصفي في عرض موضوع البحث.

الدراسات السابقة:

- رسالة ماجستير في الأدب والنقد بعنوان "القيم الاجتماعية والفنية في شعر الصعاليك "،إعداد الطالب، الأمين محمد عبد القادر ، 2008م، تناول فيها الباحث مجموعة من القيم التي تبناها الشعراء الصعاليك، واوردوها في أشعارهم فخرا، ومدحا، وذما، وقد عرض الباحث نماذج من قصيدة تأبط شرا " يا عيدُ مالك من شوق " على قيمة الصبر على الشدائد، وقيمة الغنى من أجل سد حاجاته وحاجات غيره.
- مقال بعنوان " تأبط شرا ما بين الحقيقة والخرافة والخيال "، د. نجم عبد الكريم، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ النشر: 28 ديسمبر، 2003م، العدد 9161، تحدث فيه الباحث عن ماهية الشاعر في الحقيقة، والخرافة، والخيال.

- مقال بعنوان " البناء الفني في شعر تأبط شراً"، إعداد الباحث قصي طارق، بواسطة gusay tarig، بتاريخ: 4/12/ 2013م، تناول فيها الباحث ظاهرة البناء الفني في شعر تأبط شرا، التي تركز على خصائص الأسلوب بمستوياته الثلاثة: التركيبي، الدلالي. الإيقاعي.

والباحث في موضوع " شعرية الفطرة " سيقدم فكرة جديدة لم يتطرق لها الباحثين تتناول دور وعلاقة الفطرة المركزة في إبراز قوة شعرية الشاعر الصعلوك تأبط شرا.

ويتكون هذا البحث من مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع.

المقدمة : وفيها الاستفتاح وعنوان البحث، وأهميته وأهدافه، ومنهجه، وخطته، والدراسات السابقة.

المبحث الأول : مدخل للتعريف بالموضوع.

المبحث الثاني : القيم التي جسدتها قصيدة الشاعر تأبط شراً.

المبحث الثالث : البناء العام للقصيدة.

المبحث الرابع : توظيف الفطرية في شعره.

الخاتمة : وفيها أبرز النتائج.

الفهارس : وفيه فهرس المصادر والمراجع.

وأخيرا بعد أن أبحرنا في هذا البحث المتواضع نأمل من الله أن نكون قد وفقنا في عرض فكرة هذا الموضوع البسيط، وصل الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آلهِ وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: مدخل للتعريف بالموضوع.

مفهوم الفطرة في المعاجم:

يعرفُ ابن منظور " الفطرة " بأنها هي ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به وقيل فطر كل إنسان على معرفته بأن الله رب كل شيء وخالقه.[1]

مفهوم شعرية الطبع والفطرة في الأدب:

هناك من يعرض لنا مفهوم الأدب مرتبطا بحقيقة أن الإنسان قد ولد على الفطرة؛ لذلك الأصل فيه أن يكون حسن الخلق، رفيع الأدب ، يقول ابن القيم: " الأدبُ هو: استخراج ما في الطبيعة من الكمال، من القوة إلى الفعل، فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد".[2]

أذن هو الأداة التي من خلالها نستخرج ما في الطبيعة من الكمال، خاصة أن الإنسان مهيأ لقبول هذا الكمال ومستعد له بالفطرة، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: " كل مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، فأبواهُ يهودانِهِ، أو ينصرانِهِ ،أو يمجسانِهِ"[3]، ولكن البيئة السلبية قد تؤثر على هذه الفطرة السليمة، فلا بد للإنسان من التبصر: لاختيار الطريق والسلوك الصحيح القويم الذي يبعده عن الزلل.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، مادة " فطر".

(2) ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ص:2/ 361.

(3) البخاري: صحيح البخاري، حديث (1385)، ص: 222.

يقول: ابن الأثير في حديثه عن الطبع والملكة الفطرية " اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة... وملاك هذا كله الطبع، فإنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تغني تلك الأدوات شيئا، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد، والحديدة التي يقدح بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا " (4)

فالفطرة المركزة في ذات الشاعر هي، التي تعطي النار الكامنة في الزناد قوتها كي تشتعل، وتتوهج، وبدونها لا تفيد الآلات الأخرى المكتسبة.

شعرية الطبع، والفطرة تتمثل بالفطرة السليمة التي ولد عليها الإنسان، وماهي في شعر الصعاليك إلا تعبير عن معاناة حقيقية، ومأسي إنسانية، ووجدانية عاشها الشاعر وتعايش معها بصدق أو لاحظها فلم يطقها ؛ لأنها لا تجسد القيم العربية من مكارم خلقية وسلوكية لصورة الإنسان العربي، الشجاع، الكريم، الأبي، شديد البأس، وإنما تجسد القسوة، والعداوة، والجوع، والفقر، والعبودية. فأثارت هذه القيم نفسه وحركت وجدانه، وألهبت عاطفته إلى قول الشعر المركوز في ذهنه الذي يمثل القيم العربية الأصيلة ولا يقبل غيرها.

إذن شعر الصعاليك يجسد هذه الشعرية " شعرية الفطرة " التي هي، أقرب في تصورها إلى تصور إسلامي للذات النموذجية للإنسان المسلم.

نخلص من ذلك أن (شعر الفطرة) هو: شعر الطبع، الذي يعبر عن حالة قائله، فيؤثر في نفوس الآخرين؛ لسهولته وقرب مأخذه، بصورة فنية لا تأنق فيها ولا تعقيد تبعا لحياة العرب البسيطة، التي تمثل الفطرة السليمة المتطابقة مع منهج خالق الأكوان، فلا يخرج الشاعر عن مبادئ فطرته المتمثلة في الأخلاق العربية الأصيلة، وإنما يتطابق معها تطابق تام؛ لأن خروجه يسبب له الكآبة والألم النفسي، لأنه خرج عن منهج الله، وخصائص النفس البشرية التي يفترض أن تكون مبرمجة تبعاً لتلك الفطرة السليمة.

المبحث الثاني: القيم التي جسدها شعر الصعاليك

من خلال قصيدة الشاعر تأبط شراً.

قصيدة تأبط شراً هي، نموذج لشعر الصعاليك، يتحدث فيها الشاعر عن قيم تتعلق بذات سأمت من العيش في القبيلة؛ نظراً لمجموعة من القيم التي لم تطقها؛ لذلك هامت على وجهها في البراري تبحث عن قيم أخرى مع مجموعة جديدة تصدقه القول، والفعل، والمودة، ولا تضمر له السوء، والعداوة، والبغضاء، وتلك هي القضية الكبرى في شعر الصعاليك؛ لذلك نراهم يبحثون عن قيم لم يجدوها في قبيلتهم، فبحثوا عنها في جماعة أخرى هي أقرب إلى الطبيعة منها للتجمع البشري، فوجدوها بعالم الحيوانات وبقيمهم الفطرية، فقد أصبح هذا المكان المعادي الذي تتجمع فيه تلك الحيوانات مكانا أليفا بالنسبة لهم، ويتجلى هذا التصور واضحاً في قوله:

وقُلـةٍ كَسِنانِ الرّمْحِ، بَارِزَةٍ،
ضَحيانَةٍ، في شهُور الصَّيْفِ مِحْرَاقِ
بَادَرْتُ قُنَّتَهَا صَحبي، وما كَسِلُوا
حتّى نَمَيْتُ إليها بعدَ إشراقِ
لا شيءَ في رَيْدِهَا، إلاّ نَعَامَتُهَا؛
مِنْهَا هَزِيم، وَمِنهَا قَائِم ٌ بَاق

(4) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص: 1/ 55.

لقد طوع تأبط شرا هذا المكان المعادي، واستطاع أيضا أن يطوع الجماعة التي تعيش فيه بحيث لا تحمل له السوء، والعداوة، ويتضح ذلك من قوله:

يسرِي على الآين والحياتِ، مُحْتفِياً

نفسي فِداؤُكَ مِنْ سارٍ على سَاق

وشعر الصعاليك يجسد هذه الشعرية (شعرية الفطرة) التي هي، أقرب في تصورها إلى تصور إسلامي للشعر والأدب؛ لأنها تتحدث عن قيم، وذات ربما هي أقرب للذات النموذجية للإنسان المسلم كما صوره المسلمون، وهنا يتضح لنا سبب اختيار رواد الشعر في العصر الإسلامي لشعر الصعاليك ضمن المختارات الشعرية؛ لأنها تجسد مجموعة من القيم، والفضائل التي يتحلى بها العرب في جاهليتهم، كالعفة، والإباء، والنجدة والصبر على الشدة، والكرم، إلى جانب الشجاعة، والصلابة، والجرأة، والإقدام، وهذه القيم التي في قصيدة تأبط شراً، هي نفسها القيم التي تكررت في لامية العرب، التي هي النواة الأصلية، والقصائد الأخرى هي ملحقة بهذا النص الأصلي، فهي تشكل منظومة واحدة، وبنية واحدة أيضا، ابتداء من المعجم الذي يتميز بخشونة، وصلابة لا تختلف عن طبيعتهم الخشنة، مرورا بالإيقاع الذي جاء على فطرته وسجيته دون الاعتناء به. كما تظهر شعرية الفطرة في مستوى الصورة. إذن هذه الفطرية هي، رؤية عامة تهيمن على شعر الصعاليك بدأً من المعجم، وانتهاء بالدلالة والرؤية. وهذا النص يؤكد أن المعنى العام للنص المتمثل في الطبيعة الخشنة، لا يمكن أن يُحرر إلا من خلال الرؤية الكلية الجوهرية الجمعية للنص، فالمعنى لا يتشكل إلا من خلال هذه النظرة الكلية، فكل كلمة في بناء النص تُضاف إلى الكلمات السابقة المكونة للجمل في كل بيت من أبيات القصيدة فتعمل على تغيير جديد للمعنى، وهذا هو المستوى الأبعد في فهم مدلول النص الذي يتدرج من بيت إلى بيت، ومن مستوى الصورة إلى الصورة الشعرية المهيمنة، ومن مقطع إلى آخر حتى نهاية القصيدة، وبذلك تكون القصيدة تغيرت عن المدلول الأول إلى المدلول العام، وهذا ما يسمى بالتفاعل النصي الذي يكون تأثير آخر كلمة فيه لا يقل عن تأثير أول كلمة في النص.

فقوله في الشطر الأخير من القصيدة:" إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي "مرتبط بالشطر الأول من قصيدته " يا عيد مالك من شوق وإيراق " لقد أشار إلى القيم والأخلاق والشمائل التي يفخر بها فهو في البيت الأخير يفخر بأخلاقه، ومعنى البيت: " لتندمن على سوء عشرتك لي وإفراطك في لومي وعتبي إذا فقدتِ بغيبتي عنك شخصي واضطررت إلى تذكركِ أخلاقي وتصورِكِ شمائلِي وطباعي" [(5)]، كما يجسد البيت الأول أيضا اعتزازه بنفسه وافتخاره بصبره على الحزن والهم والشوق عندما قال:" يا عيد مالك من شوق " ومعنى البيت:" يأيها المعتاد أي شيء لك، أي يتبعك ويجتمع لي بك من شوق يزعج، وسهر يقلق، وخيال يأتي، على ما يعرض له من النوائب والآفات، ويطرق"[(6)].

المبحث الثالث: البناء العام للقصيدة.

يعد شعر تأبط شرا نموذجا من النماذج القليلة في الشعر الجاهلي التي جسدت فيه المقدمات الشعرية أحاسيسهم ومقاصدهم الذاتية بصورة حسية واضحة.

المدخل في القصيدة يلخص البناء العام للقصيدة التي تجسد ملامح الشخصية المثلى كما يجسد صورها شعر الصعاليك، وتشبه هذه الصورة ظاهرا، وباطنا صورة شخصية المسلم كما رسم أبعادها الإسلام، ودعا المسلمين إلى تمثلها أو مقاربة مثالها أن أعوزهم السداد: للوصول إلى النموذج الأعلى وتمثله تماما.

---

(5) تأبط شرا: الديوان، ص: 415.

(6) السابق نفسه، ص: 374.

أن هذ الصورة التي تضمنتها القصيدة في بنيتها هي، التي تركت أثرها في نفوس المتلقين في الحقبة الإسلامية فجعلتهم يتجاوبون معها تجاوبا كبيرا، فكانت ضمن مختاراتهم الشعرية، ونحن نعلم أن للمختارات صلة نفسية وجمالية بالمتلقي أكثر من صلتها بالمؤلف، فهي تعكس ذوقه الجمالي، وتعبر عن خصائصه النفسية، والسلوكية؛ لذلك استجادها الكثير من الرواة والنقاد.

وقصيدة تأبط شراً، ضمنها الشاعر مأساته الإنسانية والوجدانية، وسكب فيها عصارة عقله، وخلاصة تجاربه في الحياة من قسوة وجفاف، وخطر ومغامرة، وكراهية وعداوة، وجوع وفقر، وترحل وعبودية؛ لينظم لنا هذه التجربة الشعرية من خلال معايشته الحقيقة لها، ويتضح ذلك من مطلعها حيث يقول:

يا عيد مالك من شوقٍ وإيراقِ

ومرّ طيفٍ على الأهوالِ طرَّاقِ

يسرِي على الآين والحياتِ، مُحْتفِياً

نفسي فِداؤُكَ مِنْ سارٍ على سَاق

يقول محمد غنيمي هلال: " فليس ضروريا أن يكون الشاعر قد عاش التجربة بنفسه حتى يصفها، بل يكفي أن يكون قد لاحظها، وعرف بفكرة عناصرها، وآمن بها، ودبت في نفسه حمياها. ولابد أن تعينه دقة الملاحظة، وقوة الذاكرة وسعة الخيال وعمق التفكير، حتى يخلق هذه التجربة الشعرية التي تصورها عن قرب، على حين لم يخض غمارها بنفسه "[7]

كما تصور ذاتا يتداخل فيها الذاتي مع الموضوعي، ويتعانق فيها الخاص مع العام، فهي تتدرج اعتمادا على تقنية الالتفات من أنا ورقية منحوتة من ألفاظ وكلمات ينوب عنها ضمير المتكلم الذي يحاكي ويماثل ذات الشاعر كما في الواقع لحماً ودماً إلى أنا نموذجية لا زمنية ناب عنها ضمير الغائب، وهو ضمير حيادي يسند إلى الذات في منأى عن الزمان والمكان، وهكذا يصور هذا الضمير ذات لرجل عسفٍ، أبي، كريم النفس، شديد العزم، قوي الشكيمة، متقشف، زاهدا بمتاع الحياة وزخرفها، يؤثر الخشونة على اللين، والتعب على الدعة، والقوة على الضعف، مما يقربه من شخصية المسلم كما حدد ملامحها الإسلام.

يهيمن على جو القصيدة أسلوب الخشونة والقوة والشدة شكلاً، ومضموناً، دال ومدلولات، وهذه الخشونة التي أثيرت لتكون نموذجا للشخصية النموذجية المضمرة في القصيدة تتمدد: لتشمل بنية القصيدة كلها إيقاعا وتركيبا وصورة مما أضفى على القصيدة صفة الواقعية الوصفية القائمة على الصدق، ونقل الواقع على حقيقته وخشونته بعفوية وفطرية دون زخرفة لفظية من شأنها أن تصقل الواقع فتحسنه فيأتي النص أرفع، وأجمل من واقعه الذي يحاكيه، وتلك هي الوظيفة الخداعية الإيهامية التي كان يمارسها النص الجاهلي عدا قليل من الشعراء الجاهليين، ومنهم شعراء الصعاليك.

إذن الأسلوب الذي اختاره الصعاليك أسلوب الخشونة أسلوب الفطرة، كأنهم اختاروا هذا المنهج الواقعي الذي يصف الواقع دون تغيير، وتزيين، وتزوير، وتجميل، فهم بذلك خالفوا غيرهم، واختلفوا عن الأسلوب الذي كان سائد في زمانهم الذي حول الشعر إلى أسلوب يهتم بالمبالغة بالوصف، والتعبير، والاهتمام بالصنعة إلى درجة أن يتحول الشعر إلى وظيفة خداعية تصور الأمر على غير الحقيقة، وهي تشبه بذلك إلى حد ما وظيفة السحر، الذي يصور الواقع، ويوهم الناس بواقع مختلف تماما.

(7) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص:385.

هذه الوظيفة جعلت الإسلام يشن حملة على الشعر، وهذه الحملة على الشعر ليست لأن الشعر له وظيفة جمالية فنية تعبيرية، فهذه يعترف بها الإسلام، وإنما بسبب الوظيفة الخداعية التي انيطت به فجعلته يغير الواقع ويوهم الناس بواقع مغاير للحقيقة كما هو ديدن السحر الذي يسحر الناس، ويحول لهم الواقع إلى صورة غير حقيقية، والأصل أن ينقل الشعر الواقع ويغيره من أجل الإصلاح، فيقوم بوظيفة إصلاحية تغييرية، وليس وظيفة ايدلوجية خادعة تصور الحقيقة ولا تنقدها ولا تصلح الواقع، وهذا هو السبب الذي جعل القرآن يتحدث عن الشعراء ويصفهم في قوله تعالى: { والشعراء يتبعهم الغاوون }[8]، فالشعراء رسموا لهم عالما وتخيلوا عوالم وهمية إذا قارنوها بالواقع تخيلوا أنها أفضل من الواقع؛ لذلك كان الناس كلما قارنوا بين هذين الواقعين الواقع الجميل الخيالي الهيامي الذي يرسمه الشعراء ، وبين واقع فاسد موغل في الجاهلية، وهو الواقع المعاش هربوا من هذا الواقع إلى واقع وهمي، هو ذاك العالم الذي رصد معالمه الشعراء؛ لذلك جاء القرآن الكريم يتحدث عن أن الشعراء كرسوا هذه الشخصية الفصامية التي تعيش الواقع بصورة من الواقعية، وتعيش العالم الخيالي بوهم أو هيام يتحولون إلى هذا الشعر الذي يرتفع بهم عن الحقيقة والواقع الفعلي: ليسحرهم ويصرفهم عن الواقع، إذن أصبحت وظيفة الشعر كالخمر، والسحر الذي يصرف الناس عن الواقع ثم بعد أن يفيق شارب الخمر يجد الفساد كما هو لم يتغير، هذه هي الوظيفة الايدلوجية التي يتخذها الناس: لتصرفهم عن الواقع، وتنقلهم إلى عالم هيامي تظل معه الحياة مترنحة بين هذه الوسيلة المخادعة التي يعتمد عليها في صرفه عن واقعه إلى أن جاء الإسلام وحرم هذه المجالات الثلاثة: (الشعر، الخمر، السحر) التي اختلفت اتجاهاتها واتحدت وظائفها المتمثلة بالخداع، والإيهام، وهذا هو سبب ذم الشعر، وليست الشعرية.

أما بالنسبة للشعراء الصعاليك فقد ابتعدوا عن هذا الإيهام، الذي يكرسه الشعر؛ لأنهم كانوا يعتبرون أن هذه وسائل أخرى من شأنها أن تصرف الناس عن النظر للواقع؛ لذلك اختاروا هذا الأسلوب الفطري الذي يجسد الواقع بصورة وصفية تصف الواقع كما هو دون أن تضيف إليه تنميق أو سحر بياني من شأنه أن يتحول الشعر به إلى سحر يقلب الواقع إلى باطل.

المبحث الرابع: توظيف الفطرية في شعره.

عندما أراد تأبط شراً توظيف هذه الفطرية في شعره، بدأ بمقدمة غزلية على شاكلة الشعراء ولكن ينحرف بها عن المألوف بمفصدية يريد أن يبرزها، وعندما أراد فعلا توظيف المقدمة الغزلية ضمن نص فني موضوعه الأساسي التغني بعزة النفس ومحامدها، والتباهي بشخصية نموذجية ذات مكارم واخلاق فهو: الأبي، الشجاع، الماجد، الماضي في الأمور، الشديد المراس، وجد نفسه إزاء تقليد فني مرتبط بنمط شعري سائد لا يعبر عن واقع الصعاليك، فكيف بشخص مطارد صعلوك مثله يهيم بالبراري، ولا يقر له قرار أن يتحدث عن علاقة وصل وقرب بامرأة جميلة منعمة نؤوم الضحى ترفل بالدمقس، والحرير كما يفعل شعراء القبيلة الذين تبدأ قصائدهم بالاستهلالات، كالبكاء على الأطلال، ووصف الرحلة، والنسيب، وتنتهي بالغرض الرئيس: لشد انتباه المتلقي، وهذا ما يؤكده ابن قتيبة في قوله: " أن بناء القصيدة على هذه المقدمات إنما تستدعيه الرغبة في لفت الانتباه، وإشراك السامعين في عاطفة الشاعر، وهي عاطفة تسهل المشاركة فيها لأنها قريبة إلى القلوب جميعا ".[9]

(8) سورة الشعراء، آية:224.

(9) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 100.

أنه لو أختار الأسلوب ذاته الذي يعبر به الشعراء المترفون عن حالهم، وأمانيهم لجاء شعره بعيدا عن واقعه الخشن؛ لذلك عدل، وانحرف عن هذا النموذج الذي سلكه إلى نموذج أخر يستحضر فيه طيف المرأة بدل شخصها في قوله:[10]

يا عيد مالك من شوقٍ وإيراقِ
ومرّ طيفٍ على الأهوالِ طرَّاقِ
يسرِي على الآين والحياتِ، مُحْتفِياً
نفسي فِداؤُكَ مِنْ سارٍ على سَاقِ

والحديث هنا عن طيف المرأة خيالا ليس حقيقة، فالشاعر يتحدث عن خيال يزوره لا عن امرأة تزوره، فكيف لرجل يهيم في البراري أن يتحدث عن زيارة امرأة، وهو لا مقر له، ولا مقام، إن المرأة فقط تزوره خيالا ووهما، وليس حقيقة، وتلك طريقة لجأ إليها الشاعر؛ ليتحدث عن طقس فني زائل، ولكن ليكيف هذا الطقس مع واقعه هو عدل عن هذا النموذج وهو زيارة المرأة خيالا لا واقعا إلى نموذج أخر يستبدل فيه المرأة بالخيال، فهو يستحضر طيف المرأة بدل شخصها، والكلام في البيت الأول يتضمن صورة التعجب من صعلوك يضرب في الفلاة حافيا أن يعاوده الشوق والايراق حين طرقه خيال المرأة كأنه يتعجب من هذا الطيف الزائر الذي يوقظ فيه الوجع، والشوق، وهو الرجل القوي، بالإضافة إلى عدم تحقق شروط التواصل، والقرب بينه وبين المرأة ومنها: الاستقرار والتواجد، فهذا العنصر بالذات غائب في حياة تأبط شرا، فكيف له أن يعبر بهذا المدخل من قصيدته عن علاقات بامرأة ؟ وقد تمزقت حبال الوصل وانقطعت بينهم منذ أن أبتعد عن قبيلته وهام على وجهه بالبراري، فكان الأقرب إلى الحقيقة أن يخرق الشاعر هذا النموذج، ويحوره؛ ليكون أصدق أخبارا عن واقعه وهذا ما جعله يعدل عن الحقيقة إلى الخيال، وعن الذوات إلى الطيف، فيقلب صورة المرأة إلى طيف، وشبح: لينسجم الكلام مع سياق الحال، والمقام ليس هذا فحسب بل أن تأبط شرا قد أوغل بالواقعية، والصدق فأخرج الطيف مخرج الأدمي فجعله يمشي على ساقين.

فنجده بالأبيات السابقة يصف الخيال بأنه يسير ليلا فوق الحيات حافي القدمين، ماشيا غير راكب، ولكن الخيال لا يمشي على ساق، فوصفه بما بوصف به صاحب الساق، وهو يقصد صاحب الخيال، ثم ذكر القدمين الحافيتين، والساق في الطيف حتى يلبس جو الأنوثة على هذه المعشوقة التي جاء طيفها يخفف من عناء السفر، ثم إن ذكر الساق الواحدة دون الساقين لهو ذكاء خارق في إبداء محاسن المحبوبة.

فقوله:" يسري " الضمير فيها يعود على الطيف، والواقعية اقتضت من تأبط شرا أن يعبر بالطيف، ويخرجه مخرج الادميين، ويجعله يمشي على ساق كالإنسان ، وهو طيف صعلوكة خشنة مثله تمشي حافية القدمين فوق الأفاعي دون خوف، وعلى الأرض القاسية الوعرة، وهذه الخشونة، والقوة، وشدة البأس، ورباطة الجأش صفات جعل منها النص قيم مثلى ظلت تتردد في فضاءه مطلعا، ومقطعا بحيث أصبحت بيت القصيد، ونواته التي نزلت منها بقيت الأبيات، والصور الشعرية التي تحتوي على معان كثيرة لم يذكرها الشاعر، ولكن دل الكلام عليها بطريقة غير مباشرة، فالشاعر حين يتكلم لا يكون مسيطرا على كلامه بعقله سيطرة تامة؛ لوجود عنصر آخر هو المسيطر عليه وهو:(عنصر الموهبة، الإلهام، القريحة، الطبع) فيأتي كلامه يحمل أشياء مكنونة في خبايا نفسه، هو غير منتبه لها، فتخرج على لسانه، يدركها الناس، ولكن لا يدركها هو؛ لأن عقله غير واعي أثناء الإبداع.

وهكذا توالت مستويات القصيدة وبنياتها الصغرى جميعها التعبير عن هذه النواة؛ لتلتقي كلها عند بنية النص الجامع الذي يتعالى عن هذه البنيات، ويمتصها جميعا.

(10) تأبط شرا: الديوان، ص:125-127.

الشاعر بدأ بمقدمة تتلاءم مع حياة هذا الصعلوك الذي يتحدث عن ذات تتصف بالقوة والشجاعة، وقد وفق في ذلك.

كما نجد هذه المثل الفطرية تتردد أيضا في البيت الثالث الذي يجسد حسن التخلص عندما قال: [11]

إنّي، إذا خُلةُ ضنّتْ بِنَائِلِها

وأمْسكتْ بضعيفِ الوَصْلِ أحداق [12]

نجوتُ مِنها نجائِي من بجيلةَ إذْ

ألْقيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَّهطِ أوراقِي

معنى البيت: إني إذا صديقة بخلت بوصلها، وأمسكت بعهدٍ ضعيفٍ ذي وصل وأقطاع لا يستمر على حالةٍ واحدةٍ بل يتغير فيتصل حينا وينقطع حينا، زهدت في مخالتها فصرفت نفسي عن هواها، وتخلصت منها تخلصي من أعدائي بني بجيلة ليلة صارت بالمرصاد لي تطلب حتفي، استطاع الشاعر أن يتخلص بطريقة رائعة فيها نوع من البراعة إلى الشخصية النموذجية دون أن يتغافل عن الحديث عن ذاته وعزته وقوته، كما يظهر البيت التاسع أيضا حسن التخلص عندما قال:[13]

ولا أقولُ، إذا ما خُلةٌّ صَرمتْ:

يَا ويحَ نفْسِي مِن شوقٍ واشفاقِ

لكِنمَا عِولِي إنْ كُنت ذَا عولٍ،

على بَصيرٍ بكسبِ الحمْدِ سَبأَّقِ

فها هو يصف جلده، وصبره على ما يعن له، وأنه مجربٌ مدربُ في المخالة، والوداد، لا يحطمه صرم من يصرمه، ولا يزدهيه فيستخفه وصال من يصله، بل يقابل كل ما يرد عليه بما يلائمه، ولكن معتمده في المصادقة على رجل سباق إلى مكارم الأخلاق، كسابٍ لمؤثرات المجد، جماع لمناقب الخير، طلاب لوجوه الحمد، والشكر. فالشاعر يمدح صديقه ضمن الإطار النمطي لغرض المدح، ويصفه بالصفات الحميدة التي لا تخرج عن المآثر والفضائل الكريمة التقليدية لمعان شعرية نموذجية تناقلها الشعراء جيلا بعد جيل فيقول:

سباق غاياتِ مجدٍ في عشيرتِهِ

مُرجع الصوتِ هدا بين أرفاق

عاري الّظنابيب مُمتدّ نواشِرهُ

مِدلاج ادهم واهي الماء غساق

حمّال ألوية شهاد أندية

قّوال مُحكمة، جوّاب آفاق

فشعرية الفطرة في معظم الأبيات تتضمن المعنى الأخلاقي، الذي يمثل المقام الأول في استجابة المتلقين لهذا النص الذي يرسم بدوره ملامح السلوك السوي أو الشخصية النموذجية ذات المنزع الفطري المحض لهذا المعنى الملازم لكلمة الأدب في المفهوم العربي القديم، والمتمثل بمعنى التهذيب الخلقي، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:" أدّبني ربي فأحسن تأديبي" [14].

---

(11) تأبط شرا: الديوان، ص:129.

(12) الأحداق: المتقطع، جمع وصف به الواحد، أي وصل أو حبل متقطع ضعيف، السابق نفسه.

(13) السابق نفسه، ص: 134- 135.

(14) محمد صالح الشنطي: في الأدب العربي القديم، ص:27

كما يأتي الإيقاع: ليعزز الفطرة، والسجية تلك المعاني التي يريدها الشاعر، وهو يشكل تيار دلالي ليجسد الفكرة المتمثلة في شعرية الفطرة، فالشاعر يختار الحركات، والروي المناسب: ليتفق مع سياق الخشونة، والقوة، فنجد الإيقاع جاء على سجيته وفطرته دون الاعتناء به، ويظهر ذلك في اختياره لروي من أكثر حروف العربية خشونة، وقوة، وهو حرف (القاف) بالإضافة إلى الحروف المشددة التي، تعزز القرائن الخشنة، وقد أختار ذلك عن قصد: ليتلاءم مع السياق العام، وينسجم معه، ومع الموضوع العام، ثم اجتماع هذه الحروف بنمط معين ضمن الكلمة الواحدة يؤدي أيضا إلى الخشونة مثل (حثحثوا – غداق)، أيضا اجتماع الألفاظ التي تشمل الحروف المتشابهة في المخارج مثل (شوق – إيراق)، (الحيات – محتفيا)، (نفسي – فداؤك)، (نجوت – نجائي)، كلمات حروفها المتشابهة متجاورة، وهذا يؤدي إلى نوع من الخشونة. وهذا ما يسمى التراكب الصوتي حيث أن " القصيدة توجد كقصيدة في العلاقات بين الكلمات كأصوات، ليس إلا، وأن معنى القصيدة إنما يثير بناء الكلمات كأصوات، أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان، وذلك التكثيف الذي نشعر به في أية قصيدة أصلية، إنما هو حصيلة بناء الأصوات " [15]

والأمر نفسه يقال عن الصورة، والكناية كلها صيغ وتراكيب وحروف استخدمت بمقصدية: لتعبر عن الخشونة، والصعوبة التي هي، محور المعنى العام للقصيدة، والثناء على الإنسان المثالي بفطرته. من ذلك قوله:

كالحقف دَملكة النامون، قلت له

ذوُ ثلتينِ وذو بهم وأرباقِ

فقد اشتمل هذا البيت على استعارتين تصريحيتين، فقد شبه الشاعر ضفائر رأس الرجل الذي وصفه بالرمل الذي تداخل أجزاء بعضه في بعض بمشي النامين عليه حتى تدملك. ثم حذف المشبه ورمز إليه بشيء من لوازمه (دملكة) بمعنى كثف وتداخلت أصوله وتلزجت، وهي في الوقت نفسه القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، فجاءت الصورة أكثر تأثيرا في النفس من المعنى الحقيقي، كما شبه ضمر وجهه وشحوبه وتبدل رونقه براع الغنم بجامع مفارقة التنعيم والترف والراحة. كل هذا يتلاءم مع السياق العام للقصيدة الذي يحمل معنى القوة، والخشونة.

أما المتتبع للكناية في أبيات هذه القصيدة، يجد أن الشاعر استعملها استعمالا واضحا لجميع أنواعها، فكناية الصفة تظهر واضحة عندما كنى عن الصفات المعنوية السامية للشخصية النموذجية المثلى من القوة، والشجاعة، والصبر، والعفة، وأمثالها، ولم يذكرها صراحة، وإنما ذكر ما يدل عليها، والكناية عن الموصوف أيضا كنى عنه بحيث لا يذكر الموصوف، وإنما تكون الصفة خاصة به لا تتعداه إلى غيره، وكذلك فعل مع الكناية عن النسبة، بمعنى أنه لم يذكر من نُسبت إليه الصفة بصراحة، كما في الأبيات السابقة.

كما هيمن الطابع الحسي أو الصورة الحسية على تصورات وقيم الشاعر بشكل واضح في دلالة المكان عندما قال:[16]

وقُلةٍ كَسِنانِ الرّمْحِ، بَارِزَةٍ،

ضَحيانَةٍ، في شهُور الصَّيْفِ مِحْرَاق

بَادَرْتُ قُنَّتَها صَحبي، وما كَسِلُوا

حتّى نَمَيْتُ إليها بعدَ إشراقِ

(15) أرشيبالد ماكليش: الشعر والترجمة، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، ص:40.

(16) تأبط شرا: الديوان، ص: 138- 139.

لا شيءَ في رَيْدِهَا، إلاَّ نَعَامَتُهَا؛

مِنْهَا هَزِيم، وَمِنهَا قَائِمٌ بَاقٍ

قال المرزوقي في شرحه: " والمعنى: رُب قُلةٍ في دقتها، أو في تأثيرها فيمن أراد الاستقرار عليها، كسنان الرمح، ظاهرة للشمس لا تفارقها، وتحرق المرتقي إليها في شهور الصيف لقربها من قرن الشمس، أنا بادرت قُنتها (في البيت الثاني) فجواب رب أول البيت التالي، وإنما وصف نفسه بما أخذ فيه ليرى أنه لم يعد في اختياره صحبة ومن وقف عليه همه أشباهه ومن يأخذ مأخذه في أخلاقه وأفعاله ومناقبه ومراسمه " [17]

فقمة الجبل جاءت رمزا للفضائل العليا التي لا يستطيع أن يتحلى بها أي شخص، فهي تحتاج إلى جهد ومشقة، فالانتقال من المنخفض إلى المرتفع يحتاج شيء من العناء، فالارتفاع نحو الأعلى يمثل السمو بالأخلاق الحميدة، والانخفاض يمثل التدني في هذه الأخلاق " فالقرب، والبعد، والارتفاع، والانخفاض، علاقات مألوفة تربط الإنسان ارتباطا بدائيا بالمحيط الذي يعيش فيه، ولذلك مدت الإنسان بمفاهيم تعينه على التحدث عن ظواهر تبعد، من حيث طبيعتها، عن الإحداثيات المكانية الفيزيقية: ظواهر أخلاقية(السمو والتدني)، أو اجتماعية (الرفيع والوضيع)، أو نفسية(صغير النفس وكبير القلب)[18].

إن دلالة المكان، والزمان في رؤية تأبط شرا ترمز إلى مجموعة من القيم، والأخلاق الفاضلة من خلال علاقة التضاد الواضحة في الأبيات السابقة، وقد أشار الدكتور حميد سمير إلى ذلك عندما تعرض للنص فقال: " يثير الانتباه في هذا النص معجم شعري، يمثل مفتاحه الأساسي، ويكون من حقل دلالي ذي طابع مكاني (قلة الجبل)، وزماني (الضحى والشروق) يرمز إلى قيم مجردة تتدخل في علاقة تضاد مع القيم السائدة في الرؤية الجمعية المركزية. ويمكن اختزال ذلك في شكل ثنائيات، تكون كالآتي:

شروق / غروب ضوء / ظلام = طهارة / دنس

فالقلة هنا ترمز إلى حيز مكاني، يشخص قيما فاضلة غير متداولة، يحتاج التحلي بها إلى شيء من الجهد والمشقة، وبذلك يصبح " الجبل " مكانا للتسلي عن الأراضي، ورمزا للارتفاع عن الساقط الدنس، والتجاه صوب الأعلى مع ما يحمله من طهارة وصفاء. كل ذلك تشعه لفظة " إشراق " لكونها مشحونة بدلالات نفسية وروحية، توحي إلى المشقة التي يعانيها كل الذي يتجه إلى الأعلى في كبد ومعاناة، قصد الحصول على إشراق روحي، يمنح للمتسلق دفقة من إيمان، تساعده على الارتفاع نحو القنة " [19]

وفي ختام قصيدته مازال الشاعر يتحدث عن المثل الإنسانية التي يفخر بها، والتي تتمثل في شمائله وأخلاقه فيقول:

لتقرعن عليّ السّنّ من ندمٍ

إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي

والمعنى: لتندمن على سوء عشرتك، وإفراطك في لومي ومعاتبتي، إذا فقدتني، واضطررت إلى تذكر أخلاقي، وشمائلي التي يفخر بها المجتمع العربي.

---

(17) السابق نفسه.

(18) سيزا قاسم: المكان ودلالاته - عيون المقالات -، ص: 59، نقلا عن حميد سمير: شعرية التواصل في التراث الأدبي - تنظير وتطبيق -، ص: 68.

(19) حميد سمير: شعرية التواصل في التراث الأدبي، ص:70.

أذن الدلالة التأملية في النص كانت الغاية منها التنبيه على ما كانت تتميز به شخصية الشاعر من صفات وفضائل، وقد أتاح له استعمال ضمير الغائب جانبا كبيرا من حرية التصرف في وصف نفسه، ورصد انفعالاتها من الأشخاص، والأشياء، والأحداث.

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:-

- أثبتت هذه القصيدة من خلال دلالتها غير المعلنة رغبة واضحة من الشاعر في تمجيد " ذاته " وانتصارها على جميع الصعوبات الإنسانية والوجدانية، الأمر الذي يثبت أن هدفه غير المعلن من الرحيل كان من أجل إثبات مكارم خلقية.
- سعى الشاعر إلى الكشف عن التناقض الاجتماعي بين مجتمع القبيلة، ومجتمع الصعلوك.
- الدلالة العامة في قصيدة تأبط شرا هي، التغني بعزة النفس، والثورة على أعراف القبيلة الظالمة التي تلحق بهم الذل، والهوان، ويكون ذلك بإرساء قواعد جديدة لمجتمع يسوده العدل، والمساواة تبعا للقيم العربية الأصيلة، والمحور الجامع لهذه المعاني يتمثل في" الخشونة ".
- شعر تأبط شرا يمثل الفطرة التي تتطابق مع منهج الله، وخصائص النفس البشرية النموذجية.
- هذه القصيدة هي، ترديدا لقيم جماعية تتشابه معانيها عند الشعراء الصعاليك، يجمعهم لاوعي جمعي هو المسؤول عن توحيد قيمهم، والانطلاق بها نحو السمات المتشابهة بينهم، حيث تتحد عناصر هذه الرؤية في قوالب فنية تعبر عن معاني خلقية يشترك فيها الشعراء فيمثلون طبقة واحدة، تنتمي لثقافة واحدة، هي الثقافة العربية الإسلامية، أذن هذه القصيدة ليست تعبيرا لعوالم فردية.
- معاني الشاعر مشبعة بروح المغامرة والتحدي والخطر، وهذا يمثل واقع الحياة الحقيقية التي يعيشها الصعلوك المتشرد في صحراء مليئة بالمخاطر.
- المقدمة الطللية الغزلية تغيب في شعر تأبط شرا، وهذا يتلاءم مع طبيعة حياته المغايرة لطبيعة غيره من الشعراء، وتتمثل شعرية الفطرة في تصوير الواقع على حقيقته بمصداقية وشفافية. والمتمعن في شعره يلاحظ الوحدة الموضوعية التي تتآلف مع طبيعة حياته الخالية من الوصل، والشوق، والاستقرار.
- تظهر أيضا شعرية الفطرة في لغتهم العربية التي تتصف بالخشونة، والصعوبة، والغرابة.

وأخيرا أدعو الله عز وجل أن يغفر لي ما بدر من تقصير، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ط1، 1983م.
2. ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وأياك نستعين،
3. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ
4. أرشيبالد ماكليش:الشعر والترجمة، ترجمة سلمى الخضراء الجيسي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط.، 1963م.
5. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2001م
6. البخاري: صحيح البخاري، حديث (1385)، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، د.ط.، 1999م.
7. تأبط شرا:الديوان، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الغفار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1404هـ.

8. حميد سمير: شعرية التواصل في التراث الأدبي - تنظير وتطبيق –، إصدارات النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 1430هـ.
9. سيزا قاسم: المكان ودلالاته- عيون المقالات – د. ط.
10. عفيف عبد الرحمن: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا، دار الفكر، عمان، د. ط.، 1977م.
11. ماهر شعبان عبد الباري: التذوق الأدبي – النظرية والتطبيق -،مكتبة المتنبي، الدمام، ط1، 2013م.
12. محمد صالح الشنطي: في الأدب العربي القديم، عمان، ط1 ، 1992م.
13. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، د.ط.، د. ت.
14. منذر المعاليقي: صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1995م.

Abstract: Literature is the tool through which we extract what is in nature from perfection ، especially that man is prepared to accept this perfection ، prepared for him instinctively ، and hence came this research "the poetry of instinct."

In which the researcher tried to expose the concept of instinct ، through the definition of language first ، and then clarify the concept in literature ، and the opinion of the writers in it.

The researcher pointed out that the meaning of "print" ، which expresses the aunt of the writer affects the souls of others ، especially if this poetry embodies a set of values and virtues of the Arabs ، which is closer to the typical self of the Muslim man as portrayed by Muslims

It turns out that this finalism is a general view that dominates the hair of the thorns starting from the lexicon ، and ending with meaning and vision. This text ، "Ya'id Malik ،" confirms that the general meaning of the text ، which is the coarse nature of the poet ، can only be liberated through the holistic and universal vision of the text. The meaning is formed only through this holistic view. The effect of the last word is at least the first word effect in the text.

Finally ، it is clear that the general significance of the poem is to mourn the dignity of the soul and its institutions ، and the revolution against the customs of the unjust tribe ، which is humiliated and humiliated by establishing new rules for a society of justice ، interdependence ، brotherhood and equality in accordance with authentic Arab values. Roughness ".

Key words: Innate values - ethical values - poetic experience - social reality - roughness - revolution.